كوسوڤو والحروب الصليبية الجديدة(*)

أبرز المحطات التاريخية التي تعود إليها مشكلة إقليم كوسوڤو ـ منذ الفتح العثماني لحوض البلقان وتمكن السلطان سليمان القانوني من دخول بلغراد عام ١٥٢١ ـ تبدأ من حرب البلقان عام ١٩١٢ ـ ١٩١٣ التي انتهت بهزيمة العثمانيين وخروجهم من معظم البلاد التي كانت قد بقيت في أيديهم أو تحت قيادتهم من جنوب شرقي أوروبا، ومنها ألبانيا. فعلى أثر هذه الحرب قرر مؤتمر لندن الذي عقد عام ١٩١٣لبحث الوضع الأوروبي الجديد تقسيم الأراضي الألبانية ـ أو ذات الغالبية من السكان الألبان بحسب عبارتهم ـ إلى نصفين متساويين تقريباً، أحدهما دولة ألبانيا بحدودها الحالية. والقسم الآخر هو إقليم كوسوڤو الذي «ضم» إلى صربيا أو دخل في حوزة بلغراد بحجة أنه «مهد الأمجاد الصربية» كما أشرنا في المقالة السابقة.

وهكذا بدأت مرحلة الحروب والصراعات الدامية بين الألبان المسلمين والصرب الأرثوذكس الذين أثبتت حروبهم ومجازرهم الرهيبة والمتعددة في البوسنة وفي شبه جزيرة البلقان أنهم ذئاب أوروبا، أو الذئاب البشرية بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ولا أعتقد أن التاريخ الحديث والمعاصر قد

(*) ١٩٩٨/٣/١٢.

عرف شعباً لا يعف في الحروب عما تعف عنه الوحوش الضواري مثل الشعب الصربي. تدفعهم إلى ذلك عصبية دينية مذهبية عمياء، ونزعة قومية واستعلاءً عنصري غير معهود.

وذكرتني بداية المجازر التي بدأ الصرب يرتكبونها في كوسوڤو، والمجازر السابقة التي لا توصف والتي ارتكبت في البوسنة في الأعوام السابقة بالمجازر المماثلة حين سقطت مدينة «أدرنة» في مقدونيا في الحرب المذكورة عام ١٩١٢، والتي وصفها أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته: الأندلس الجديدة. ومما قال فيها:

أخذ المدائن والقرى بخناقها
جيشٌ من المتحالفين لُهام[1]
غطَّت به الأرضُ الفضاءَ وجوهَها
وكست مناكبها به الآكامُ
تمشي المناكرُ بين أيدي خَيله
أنَّى مشىَ والبغيُ والإجرام
ويحثه باسم الكتاب أقِسَّةٌ
نشطوا لما هو في الكتاب حرام[2]

---

(١) المتحالفون هم دول البلقان: اليونان ورومانيا والبلغار والصرب، تحالفوا على حرب الدولة العثمانية. واللهام ـ بضم اللام ـ الجيش الكبير كأنه يلتهم كل شيء.

(٢) الأقسّة: جمع قَسّيس. ونشطوا: خفّوا وأسرعوا. ومسيطرون: أي ويحثه مسيطرون.

ومسيطرون على الممالك سُخِّرت
لهم الشعوب كأنها أنعام
من كل جزّار يروم الصدر في
نادي الملوك، وجَدّه غنّام
سكّينه، ويمينه، وحزامه
والصولجان، جميعها آثام

إلى أن يقول رحمه الله:

واليوم يهتف بالصليب عصائبٌ
هم للإله وروحه ظُلّام
خلطوا صليبك والخناجر والمُدى
كلٌّ أداةٌ للأذى وحُمام
أوَما تراهم ذبَّحوا جيرانهم
بين البيوت كأنهم أغنام
كم مرضع في حِجر نعمته غدا
وله على حدّ السيوف فطام
وصبيّةٍ هُتكت خميلة طُهرها
وتناثرت عن نَوره الأكمام[1]
وأخي ثمانين استبيح وقاره
لم يغن عنه الضعف والأعوام

(١) الخميلة هنا: الدثار من المخمل، وهو ثوب له وبر كالهداب أو هي الشجر الكثير الملتف. والنَّور: الزهر الأبيض. والأكمام: جمع كِم. بكسر القاف، وهو غطاء النور.

ومـهـاجـرين تنكـرت أوطـانهـم
ضـلوا السـبيل من الذهول وهاموا
السـيف إن ركـبوا الفرار سبيلهم
والنِّطـع إن طـلبوا القـرار مُقـام
يتـلفـتـون مـودّعـين ديـارهـم
واللحـظ مـاء، والـديـار ضـرام

وهذه الأبيات وسائر القصيدة كأنها قيلت في الحرب الأخيرة في البوسنة وما ارتكبته فيها عصابات الإجرام الصربية.

[كوسوڤو بعد الحرب العالمية]

وبعد الانتصار الذي حققته القوات الشيوعية المتعاونة في كل من يوغوسلافيا وألبانيا عام ١٩٤٥ والتطور الذي شهدته يوغوسلافيا في ظل النظام الذي قاده «تيتو» ـ الكرواتي ـ أقر الدستور الجديد الذي نشر عام ١٩٧٤ منح إقليم كوسوڤو حكماً ذاتياً واسعاً بشكل يتيح له المشاركة في أجهزة الدولة والحزب أسوة بالجمهوريات الست المنضوية في إطار «جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الفيدرالية» مع بقائه جزءاً من جمهورية صربيا ولا يرقى إلى منزلة الجمهورية من الوجهة الدستورية.

ويهدف هذا الحل الوسط إلى إرضاء كل من ألبانيا الحليفة الشيوعية.. بل الموغلة في العلمانية والماركسية وإرضاء الصرب الذين كانوا يشكلون مع الكروات القوة السياسية والعسكرية

في يوغوسلافيا التيتوية. وإن كان الصرب لم يرتاحوا للدستور المذكور، ولا للحكم الذاتي هذا «واعتبروه عملية متعمدة لإضعاف صربيا بتجزئتها» على حد قول بعض الباحثين. أو أمراً مفروضاً عليهم من عهد تيتو.

ولهذا سرعان ما شرع «أعضاء أكاديمية العلوم والفنون الصربية» يناقشون سبل «صيانة خصوصيات القومية الصربية والحفاظ على ديمومة مآثرها» على حد قولهم، وذلك بعد زوال تيتو وعرضوا الوثيقة التي خرجوا بها عام ١٩٨٧ والتي تضمنت حض الصرب على «الإسراع في القضاء على العدوان الصارخ الذي تقوم به المنظمات الألبانية الانفصالية»!! على القادة الشيوعيين الصرب، فكان أكثر هؤلاء ترحيباً بها سلوبودان ميلوسيفتش الرئيس الحالي، والذي كان في ذلك الحين عضواً في هيئة رئاسة رابطة شيوعيّي صربيا. وأبلغ الأكاديمية التي تضم في عضويتها ١٣٠ عضواً أنه مستعد لتنفيذ وثيقتهم على مراحل، بدءاً من كوسوفو.

ويبدو للناظر في الأحداث التي توالت فيما بعد أن التطور الذي أصاب المعسكر الشيوعي، وتفكك الدولة اليوغوسلافية جعل الأولوية في تنفيذ الوثيقة المشار إليها للبوسنة والهرسك كما شهدت الأعوام السابقة، وجاء الآن دور كوسوفو أو البوسنة الثانية. وإن كانت الرابطة الشيوعية المذكورة التي كان ينتمي إليها ميلوسيفتش السفاح الماكر والمخادع قامت منذ ذلك

الحين أو منذ أن أعلن ميلوسيفتش إلغاء الحكم الذاتي لكوسوڤو بإرسال الآلاف من أفراد الشرطة الصرب إلى مدن كوسوڤو، بالإضافة إلى تسليح الصرب وأبناء الجبل الأسود الموجودين في هذه المدن. قبل أن يقصد ميلوسيفتش إلى العاصمة برشتينا ليلقي في جموع الصرب كلمة غاضبة قال فيها: «إن كوسوڤو هي قلب صربيا، وستظل كذلك إلى الأبد»!!.

ويمكن عد هذا الموقف الصربي من كوسوڤو شبيهاً أو مماثلاً لموقف اليهود من فلسطين ومن القدس على وجه الخصوص، وأن ميلوسيفتش أقرب ما يكون من وجوه كثيرة إلى نتنياهو، وأن ممارساتهما القمعية واحدة. علماً بأن القمع المنظم في كوسوڤو ومحاولة إذابة المسلمين ومسخ هويتهم وتراثهم لم تنقطع. فبالإضافة إلى فرض التدريس باللغة الصربية فرض كذلك تدريس التاريخ الصربي ومناهج التدريس الصربية.

[حرب صليبية جديدة]

في الخامس عشر من نيسان « إبريل» ١٩٩٢ كتب مراسل جريدة «الحياة» في لندن يقول:

«وعانى المسلمون في إقليم كوسوڤو أكثر ماتعرضت له الأقلية المسلمة في يوغوسلافيا عموماً؛ إذ يشهد الإقليم منذ عام ١٩٨١ حملة من القمع والاضطهاد والتصفية لم يسبق لها مثيل، في ظل صمت دولي شبه مطبق.

وتجد هذه الحملة تفسيراتها في بعض تصريحات السلطات

الصربية الرسمية (اليوغوسلافية) التي تدعو إلى حمل لواء المسيحية للوقوف في وجه الإسلام: كما أوقفنا الأتراك في نهاية القرن الماضي سنحاول أن نتصدى للإسلام الآن. وهم عندما يذكرون «الأمة الألبانية» إنما يحاولون إخفاء الأبعاد الحقيقية للصراع، إذ هم لا يقصدون سوى الإسلام والمسلمين ضمناً، فيقولون: «إننا نحمي أوروبا من الخطر الإسلامي، وعلى أوروبا أن تساعدنا» ا.هـ.

وقد تحدث عن هذا القمع المنظم في العام المذكور ١٩٩٢ مبعوث الأمم المتحدة تاديوش مازوفيسكي الذي تقصّى الحقائق برفقة بعثة من ١٩ موفداً دولياً معروفين بحيادهم والتزامهم النزاهة، حين قال «إن حقوق الإنسان تنتهك في كوسوفو بصورة فظّة فيما يتعلق بالألبان، ولا وجود هناك لأي تطبيق للمعايير الأساسية للقوانين الدولية بهذا الشأن» وقال: «إن الوضع الراهن في كوسوفو خطير، وأن القوانين والإجراءات الصربية بلغت حد تقويض المعالم الثقافية الألبانية» جريدة الحياة تاريخ ٢٥ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٩٢.

واليوم تنفجر الأوضاع في كوسوفو، بعد أن فشل الضم والإلحاق، والقمع الطويل المنظم، ومحاولات التشويه الفكري والتلويث والتذويب الثقافي.. بدءاً بالعلمانية ومروراً بالشيوعية.. وانتهاء بالقومية الصليبية! وبدأ القتلى والضحايا والمفقودون يعدّون بالمئات.. ويبدو أن الأمور مرشحة للمزيد

من التصعيد والتأزم الحاد.

أوروبا تطالب بصوت خافت بإعادة منح الإقليم الحكم الذاتي الذي تحدثنا عنه قبل قليل. وهي ضامنة أنها إن رفعت صوتها أكثر فإن الروس السلاف الأرثوذكس كفيلون بعدم ترجمته إلى أمر فاعل على الأرض، وإن كان لا يبعد أن يحاول الأوروبيون أن يصنعوا شيئاً لتحجيم تطلعات الصرب، وإثبات قدرة أوروبا على التصدي لمشكلات القارة بعيداً عن هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الولايات المتحدة التي كان سفيرها في بلغراد قد أكد في نيسان – أبريل عام ١٩٩٢ على أن بلاده لا يمكن أن تغض الطرف عن محنة الألبان في كوسوفو وطالب بإعطائهم «حقوقهم المشروعة»!

فإنها تحاول أن يكون زمام المبادرة بيدها، وأن تكون أكثر فاعلية.. خصوصاً بعد عدم نجاح سياستها الأخيرة تجاه العراق، حتى تعود إلى القيادة الكاملة للأحداث مرة أخرى.

نعم، الأمور تبدو هكذا لاصله لها بحق الشعوب في تقرير مصيرها، ولا بالحرية والعدالة وحقوق الإنسان. خصوصاً في هذه الحالة التي يتعلق الأمر فيها بشعب أوروبي مسلم أو ما تزال لديه بقية باقية من موروثات الثقافة العربية الإسلامية وحضارة الإسلام! ونخشى حقيقة أن يكون الانطباع الغربي السائد أن الصرب يحمون الحضارة الأوروبية من خطر الإسلام

القادم! والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحال: ما هو موقف العرب والمسلمين من هذا المسلسل الذي يجري في حوض البلقان؟

(*) ١٠/٦/١٩٩٨م.

obeikandl.com